

## البلاغة العربية عبر العصور المختلفة (Arabic Rhetoric across Different Ages)

\* مسرت جمال

\* شبنم سليم

### Abstract

Rhetoric in Arabic is the study of effective speaking, writing and the art of Persuasion. In its long and dynamic history it has enjoyed many definitions, accommodated differing and varied purposes, yet, for most of its history it has maintained its fundamental character as a discipline for training students of how to write and express themselves effectively. The present article evaluates the inspiring role of this science of speech in various ages along with description of its growth into several branches.

استقرّ مفهوم البلاغة العربية لدى المتأخرين بأنها "العلم الذي يبحث في تركيب الكلام وصوره البيانية من تشبيه ومجاز وكناية ومحسناته اللفظية والمعنوية"<sup>1</sup>. وعرفها بعض المعاصرين بأنها: "العلم الباحث عن القواعد التي تصيّر الكلام دالاً على جميع المراد"<sup>2</sup>، وهو تعريف أقرب الى فهم المتقدمين للبلاغة.، كما نعرف من بعض التعريفات التي ذكرها ابن رشيق<sup>3</sup> في كتابه العمدة: "سئل بعض الأعراب: من أبلغ الناس؟ فقال: أسهلهم لفظاً وأحسنهم بديهة. وقال آخر: البلاغة إجماع اللفظ وإشباع المعنى. وقال آخر: معانٍ كثيرة في ألفاظ قليلة".

وسئل ابن المقفع<sup>4</sup>: ما البلاغة؟ فقال: "اسم لمعان تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون ابتداءً، ومنها ما يكون جواباً، ومنها ما يكون في الحديث، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون خطباً، ومنها ما يكون رسائل-----"<sup>5</sup>.  
وقيل: "أصل البلاغة الطبع، ولها مع ذلك آلات تعين عليها وتوصل للقوة فيها، وتكون ميزاناً لها، وفاصلة بينها وبين غيره وهي ثمانية أضرب: الإعجاز، الاستعارة، والتشبيه، والبيان، والنظم، والتصرف، والمشاكله، والمثل"<sup>6</sup>.

\* الأستاذة المشاركة، معهد الدراسات الإسلامية واللغة العربية، جامعة بشاور، باكستان.

\* الباحثة في الدكتوراه، جامعة سنده، كراچی، باكستان.

جاء الإسلام، وكان القرآن هو لسان حجته الباهرة وشمس أنواره الظاهرة، وانقسم الناس بين مصدق بالقرآن ومكذب له، ولكنهم جميعاً المصدقين والمكذبين كانوا مشدوهين بحلاوة نظمه، وبديع لفظه وجمال صورته، ومنهم من يختفى فيسترق السمع ليصغي إلى قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم دون أن يشعر به.<sup>7</sup>

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على إعجاب هؤلاء القوم بهذا الكتاب، وإدراكهم لعظمته، ووقعهم في أسر بيانه، وأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت أحاديثه وخطبه رائعة مشهورة يتلقفها الصحابة عن النبي صلى الله عليه وسلم يحرصون على كلمة خشية أن يتفلت حرف منها.<sup>8</sup>

ولم لا وهو صلى الله عليه وسلم الذي ”لم ينطق إلا عن ميراث حكمة ولم يتكلم إلا بكلام قد حفت بالعصمة. هو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، ونشأه بالقبول. وجمع له بين المهابة والحلاوة وبين الحسن الإفهام وقلة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته... ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ولا قصداً لفظاً ولا عدل وزناً ولا أجمل مذهباً ولا أكرم مطلباً ولا أحسن موقعاً ولا أسهل مخرجاً ولا أفصح معنى ولا أبين في فحوى من كلامه.“<sup>9</sup>

كذلك فقد كان الخلفاء الراشدون خطباء مفوهين يتخيرون الألفاظ، ويعنون بالنظم، وقد ورد عنهم ما اتخذ البلاغيون بعدهم أساساً لأبواب من البلاغة والفصاحة والبيان، فمن ذلك ما يروى عن أبي بكر<sup>10</sup> - رضي الله عنه - من أنه عرض لرجل معه ثوب، فقال له: أتبيع الثوب؟ فأجابه: لا عافاك الله، وتأذى أبو بكر مما يوهمه ظاهر اللفظ، إذ قد يظن إن النفي مسلط على الدعاء، فقال له: لقد علمتم لو كنتم تعلمون، قل: لا، وعافاك الله.<sup>11</sup>

ولقد كان شيوع هذه الرواية وتردادها على ألسنة البلاغيين هو الذي حد إليهم إلى أن يفتحوا في البلاغة باباً خاصاً هو باب "الفصل والوصل".

كان عمر<sup>12</sup> رضي الله عنه فصيحاً بليغاً، فقد ضرب الرواة لفصاحته وبلاغته، وعلي<sup>13</sup> رضي الله عنه لم يكن يجاريه أحد في مضمرة الفصاحة والبلاغة.<sup>14</sup>

لما اتسع مجال الفتوحات الإسلامية، واختلط العرب بغيرهم وضعف الاعتماد على الذوق وحده، كان لا بد من أن تقعد القواعد، فوضع أبو عبيدة<sup>15</sup> ”مجاز القرآن“ هو وإن كانت عناية لغوية، فلقد كانت له بعض ملحوظات البيان. ثم جاء الجاحظ فكان له فضل حيث اتسعت بفضلها دائرة هذه الملحوظات.<sup>16</sup>

وإذا تحولنا إلى عصر بن أمية وجدنا الخطابة بجميع ألوانها من سياسية وحفلية ووعظية تزدهر ازدهاراً عظيماً، وفي كل لون من هذه الألوان يشهر غير خطيب أماني السياسة فيشتهر من ولاية بني أمية زياد<sup>17</sup> والحجاج<sup>18</sup>.

أما خطباء الوعد فقد بلغوا الغاية من روعت البيان وفي مقدمتهم غيلان الدمشقي الحسن البصري<sup>19</sup> ويقول الجاحظ إن أديب العصر العباسي كانوا يتحفظون كلام الحسن وغيدان حتى يبلغوا ما يريدون من المهارة الليانية ويشيد ببلاغة واصل مدللاً عليها بإسقاطه إسرائاً من كلامه تلتغته فيها، مع ما انتظم له من الطلاوة والجزالة نرى الجاحظ في غير موضع من بيانه يسوق ملاحظات الناس على الخطباء كما يسوق ملاحظات الخطباء أنفسهم وخاصة أصحاب الوعظ منهم.<sup>20</sup>

اتسعت الملاحظات البلاغية في العصر العباسي اتساعاً يمثل طفرة كبيرة كانت استجابة لعدة عوامل أثمرت في جميع مجالات الحياة في العصر العباسي، وليس في مجال الأدب وحده، وقد نشأت هذه العوامل أن شاركت في نشأة البلاغة وتدوين الملاحظات البيانية في هذا العصر مدة طوائف.<sup>21</sup>

1- طائفة الكتاب من الفرس والموالي.

2- الشعراء وأثرهم في تطور البلاغة في العصر العباسي.

طائفة اللغويين وأثرهم في نشأة البحث البلاغي. ومن بعد الجاحظ ثم جاء ابن قتيبة<sup>22</sup> وهو إن لم يبلغ مرتبة الجاحظ من حيث تسجيل الملحوظات.

ثم جاء ابن المعتز<sup>23</sup> فوضع الكتاب ”البدعي“ وذكر فيه أنواع مما بنيت عليه البلاغة فيما بعد.<sup>24</sup> وبعده جاء ابن قدامة<sup>25</sup> فزاد على ما ذكر ابن المعتز من أنواع البدعي، ثم جاء أبو بكر الباقلاني<sup>26</sup>، فوضع كتاباً ذائع الصيب، وهو ”إعجاز القرآن“ أيضاً كتاب ”الصناعتين“ لأبي هلال العسكري<sup>27</sup>، وكان عن البيان بعامه، ولم يقصروه على البحث في الإعجاز فقط.

ثم جاء عبد القاهر فوضع كتابه: "دلائل الإعجاز" و "أسرار البلاغة". وجاء السكاكي فألف كتابه "مفتاح العلوم" وهو أول من فصل موضوعات كل من علم المعاني والبيان على حدة، وجعل كثيراً من أنواع البديع التي عرفت فيما بعد تابعة لعلم المعاني.<sup>28</sup> وهكذا نشأت البلاغة ["البيان" عند القدماء] وتطورت في العصور المختلفة ووصل إلينا في ازدهاء كامل ونحن نقرأ ونستفيد منه.

و ملخص القول أن الملاحظات البيانية أخذت تنشأ عند العرب منذ العصر الجاهلي، ثم مضت هذه الملاحظات تنمو بعد ظهور الإسلام لأسباب شتى منها: استقرار العرب في المدن والأقطار المفتوحة، ونخصتهم العقلية، ثم الجدل الشديد الذي قام بين الفرق الدينية المختلفة في شؤون العقيدة السياسية، وكتاب الأغاني خير شاهد للدليل على ذلك.<sup>29</sup>

## الهوامش والمراجع

<sup>1</sup> طارق الطواري، الدكتور: البحث البلاغي عند العرب، دارالعلم للملايين، 1979م، 9. البرهان في وجوه البيان 163.

<sup>2</sup> الطاهر بن عاشور: موجز البلاغة دار الثقافة بيروت، ص 3. ينظر: زغلول، محمد سلام، تاريخ النقد الأدبي، منشأة المعارف بالإسكندرية د. ط. د. س؛ د. احسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب حتى القرن الرابع الهجري، دار المعارف، بمصر، 1979م، ص 102.

<sup>3</sup> هو الحسن بن رشيق القيرواني، أبو علي، أديب شاعر نقاد، باحث، ولد في المسلمة سنة 390هـ (1000م) توفي 463 هـ (1070م) من تصانيفه الكثيرة: كتاب العمدة، الرسائل الفائقة. انظر للتفصيل: ابن خلكان، عباس شمس العين أمد بن محمد بن أبي بكر: وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس، دار قم ايران، 83/2

<sup>4</sup> هو عبد الله بن المقفع، من أئمة الكتاب، وأول من عني في الإسلام بترجمة كتب المنطق، أصله من الفرس، ولد في العراق مجوسياً، وأسلم على يد عيسى ابن علي (عم السفاح). هو أشهر كتبه وإنشاد سائل غاية في الإبداع، منها: "الأدب الصغير" و "الأدب الكبير" و "اليتيمة" وغيرها. انظر للتفصيل: ابن كثير: البداية والنهاية، دار الكتب العلمية بيروت ط/ 3 1998م، 91/1؛ فريد وجددي: دائرة المعارف الإسلامية، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1971م، 282/1.

<sup>5</sup> ابن رشيق القيرواني أبو علي، العمدة، ط جديدة، دار الكتب العلمية بيروت، 1997، ص: 243.

<sup>6</sup> بكري شيخ امين، الدكتور: البلاغة العربية علم معاني، دار العلم للملايين، بيروت، ط/ 1، 1979م، ص 8.

- <sup>7</sup> الفيومي، أحمد بن علي: المصباح المنير: منشورات ار الهجرة، ايران قم : ط 1، 1405هـ، ص: 23.
- <sup>8</sup> المصباح، ص: 23.
- <sup>9</sup> الجاحظ، أبو عثمان عمرو: البيان والتبيين: تحقيق: عبد السلام محمد هارون: مكتبة الجاحظ بيروت لبنان: ط/3، 17/2.
- <sup>10</sup> أبو بكر: هو عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمر بن كعب بن سعد بن تميم، كان سمي في الجاهلية عبد الكعبة، فسماه الرسول صلى الله عليه وسلم بعبد الله، ولقب عتيقاً والصديق لأنه بادر إلى الصديق الرسول، ولد أبو بكر بمكة بعد عام الفيل بعامين وأشهر، حرف بالخصال الكريمة واشتهر بالعفة.
- انظر: حسن ابراهيم: دكتور، تاريخ الإسلام، دار المعارف، بيروت، ومصر، 1976م، ج: 1، ص: 203.
- <sup>11</sup> البيان والتبيين، 261/1
- <sup>12</sup> عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي، أبو حفص، ثاني الخلفاء الراشدين، وأول من لقب بأمرير المؤمنين، الصحابي الجليل، الشجاع الحازم، أسلم قبل الهجرة بخمس سنين، لقبه النبي صلى الله عليه وسلم بالفاروق. انظر: ابن الأثير: عز الدين، الكامل في التاريخ، مكتبة مثنى، مصر: 1968م، 19/3؛ ابن جرير الطبري: تاريخ الأمم والرسول المعروف بالتاريخ الطبري، 187/1.
- <sup>13</sup> علي بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي القرشي، رابع الخلفاء الراشدين، وأحد العشر المبشرين. انظر: ، مدائني: عزالدين ابي حامد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضيل ابراهيم، داراحياء التراث العربي، بيروت، ط/ 2، 1965، 579/2.
- <sup>14</sup> المصباح: ص: 24.
- <sup>15</sup> معمر بن المثنى، ولد سنة (110هـ) من علماء البصرة، تعلم النحو والشعر والعرب على يد عمرو بن العلاء وضعت في عهده أسس العلوم الإسلامية، توفي بين (209 - 213 هـ) كان من حفاظ الحديث.
- للتفصيل انظر: طاش كبرى زاده، مفتاح السعادة دار الكتب العلمية بيروت 1993م، 1، 93. خطيب بغدادي، تاريخ بغداد، ط / 4، دار الكتب العلمية بيروت 1996م، 13، 252.
- <sup>16</sup> بكري: شيخ أمين، البلاغة فنونها وأفنانها، علم المعاني، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ص: 71.
- <sup>17</sup> زياد بن أبيه، أمير، من الدهاة، القادة الفاتحين، الولاة.
- <sup>18</sup> ولد أبو محمد الحجاج بن يوسف الثقفي سنة 41 في مهد الخمول والفقر، فزاول مع أبيه تعليم الصبية بالطوائف، كان الحجاج طامحاً إلى السلطان والمجد، فسلك إليها سبيل الظلم والقسوة. انظر: تاريخ الأدب العربي، ص: 210.

<sup>19</sup> الحسن بن يسار البصري، أبو سعيد التابعي، كان إمام أهل الصرة وخير الأمة في زمنه، وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان أنسك ولد بالمدينة، وشبّ في كنف علي بن أبي طالب. انظر: وفيات الأعيان، 254/1، وابن حجر العسقلاني: لسان الميزان، دار الفكر بيروت، 1974م، 259/2.

<sup>20</sup> المصباح: 25-26

<sup>21</sup> الهاشمي، السيد أحمد: المصباح في المعاني والبيان والبدیع، مكتبة المصطوي أمير قم، ط5، 1370هـ، ص: 45.  
<sup>22</sup> أبو مسلم محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري الزوري، العالم الكبير الغوي الناقد، الكاتب الأديب، الحافظ المؤرخ، المفسر المحدث، ولد سنة 212هـ، توفي سنة 276هـ. انظر: معجم المؤلفين، عمر رضا كحاله، المكتبة العربية بدمشق، 1958م، 150/6

<sup>23</sup> عبد الله بن المعتز بالله أبو العباس، أديب شاعر، ولد في شعبان، وكان يقصد فصحاء العرب ويأخذ عنهم، ويعني العلماء من النحويين والإخباريين كالمبرد. توفي سنة 296هـ مخنوقاً. انظر للتفصيل: معجم المؤلفين، 154/6

<sup>24</sup> البلاغة فنونها وأفنانها، ص: 71-72

<sup>25</sup> قدامة بن جعفر، أو جعفر بن قدامة، بن زياد أبو القاسم، أديب من كتاب كتاب من أهل بغداد، له شعر ومصنفات في صنعة الكتاب، توفي سنة 319هـ. انظر للتفصيل: الأعلام للزركلي، 123/3، وأيضاً: معجم المؤلفين: 121/8

<sup>26</sup> أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم المعروف بالباقلاني أو ابن الباقلاني، ولد سنة 238هـ، قاضي من كبار علماء الكلام أشعري، ولد في بصرة، وسكن بغداد وتوفي فيها، توفي سنة 403هـ. [انظر للتفصيل: الأعلام لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين بيروت، 1988م، 176/6]

<sup>27</sup> الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري أبو هلالو لغوي أديب، شاعر، مفسر، له كتاب: الصناعتين، توفي سنة 395هـ. [انظر للتفصيل: معجم المؤلفين: 240/3]

<sup>28</sup> البلاغة فنونها وأفنانها، ص: 72-73

<sup>29</sup> نفس المصدر، ص8